

## علامات علماء الآخرة عند الإمام الغزالي

الشيخ محمد الفحام

**الأولى ؛** أن لا يطلّب الدنيا بعلمه , وذلك على المفهوم الشامل في المظهر والجوهر , فلا يكون عنده رغبة في مالٍ أو شهرةٍ أو شهوةٍ كلامٍ , أو حرصٍ التقدّم على أحدٍ من أقرانه ويتحقّق ذلك بأن يعلم أنّ الدنيا والآخرة كالمشرق والمغرب لا يلتقيان مهما تقاربا , وذلك للعلم بأنّ في حبّ الدنيا موت القلب وذهاب بهاء العلم والحكمة , ومن مات قلبه غاب نفعه وعظم فجوّزه وكثّر لغطه , وكبّر مقلّته احتيازه , وانتشر في الناس غلظه.

**الثانية ؛** أن لا يخالف فعله قوله , ولا يأمر بشيءٍ إلا وقد سبق إلى تطبيّقه مستحضراً بيان الله تعالى : (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) , وما ورد من أخبار الأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام أنّ الله تعالى قال لسيدنا عيسى عليه السلام : [يا ابن مريم عِظْ نَفْسَكَ , فَإِنَّ اتَّعَظْتَ فِعْظَ النَّاسِ وَإِلَّا فَاسْتَحْيِ مِنِّي] وماورد عن الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه ابن حبان قال : (مَرَزْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي بِأَقْوَامٍ تُفَرِّضُ شِفَاهَهُمْ بِمَقَارِضَ مِنْ نَارٍ , فَقُلْتُ : مَنْ أَنْتُمْ ؟) فقالوا : كُنَّا نَأْمُرُ بِالْخَيْرِ وَلَا نَأْتِيهِ , وَنَنْهَى عَنِ الشَّرِّ وَنَأْتِيهِ.

وفي الدارمي موقوفاً على معاذ بن جبل بسند صحيح : (كُنَّا نَدْرُسُ الْعِلْمَ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ , فَقَالَ : تَعَلَّمُوا مَا شِئْتُمْ أَنْ تَعْلَمُوا , فَلَنْ يَأْجُرَكُمْ اللَّهُ حَتَّى تَعْمَلُوا) قال مالك بن دينار : إنّ العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا.

**الثالثة ؛** أن يكون بالغ عنايته في علم الآخرة المرعب بالطاعات مع اجتنابه قليل النفع من العلوم لاسيما ما يفتح باب الجدال والقييل والقيل والقال تلك التي لا يحتاج إليها في أكثر الحالات.

**الرابعة ؛** بُعدُه عن الترفّه في المَطْعَمِ والمَشْرَبِ والمَلْبَسِ . والمعيار في ذلك هو التوسُّط في الأكل بما لا تَضْعُفُ به القوى , وفي الملبس بما لا يُسَفِّهُ به عند العقلاء , وفي المَرْكَبِ بما يَحْمِلُ الرَّحْلَ وَيُرِيحُ الرَّجْلَ , وفي المَسْكَنِ ما يُوَارِي السَّاكِنَ وَلَا يَكْشِفُ عَوْرَ أَهْلِ بَيْتِهِ.

والخلاصة ؛ أن عليه التشبُّه بالسلفِ الصالحين المقتديين برسول الله صلى الله عليه وسلم ما أمكن دون إفراطٍ ولا تفريطٍ ، ولا إسرافٍ ولا تقتيرٍ .

**الخامسة ؛** تنزهُهُ عن الدخول على السلاطين لِعرضه أو هواه ، ولا يُخالطهم لِكَوْنِ المُخالِطِ لهم قد لا يَخْلُو عن تَكْلِيفٍ واستمالةٍ لقلوبهم ، أو طمعٍ في مثلِ مراتبهم ، ومعلومٌ أنَّ الأصلَ الواجب والمطلبَ اللازمَ على كلِّ مَنْ يَدْنُو منهم النَّصْحُ وعدمُ المُمالاةِ ، وقد يَضَعُفُ في ذلك ، فيَقَعُ في المخطوَرِ وَيَحْمِلُ الإثمَ لاسيما إذا ضَعَفَ عند قبولِ عطائهم ، وعلماءُ الآخرة طريقتهم الاحتياطُ وفي الحديث الذي أخرجه الترمذي وحسنه ... وَمَنْ أتى السلطانَ افْتَتَنَ) وعن حذيفة قال : [إياكم ومواقفَ الفتنِ ، قيل : وما هي ؟ قال : أبوابُ الأُمراءِ يَدْخُلُ أحدُكم على الأميرِ فَيُصَدِّقُهُ بالكذبِ ، ويقولُ فيه ما ليس فيه] قال مكحولُ الدمشقي رحمه الله تعالى : [مَنْ تَعَلَّمَ القرآنَ وَتَفَقَّهَ في الدينِ ، ثم صَحِبَ السلطانَ تَمَلُّقاً إليه وَطَمَعاً فيما لَدَيْهِ خاضَ في بحرِ نارٍ جَهَنَّمَ بَعْدَ دُخُولِهِ] والخلاصة ؛ أنهم كانوا يَخْشَوْنَ على أنفسهم مِنَ التَّفاقِ إذا دخلوا على السلطانِ .

**السادسة ؛** عدمُ المُسارعةِ إلى الفُتيا ، والوقوفُ على جادةِ السلامةِ ما وجدَ إلى الخلاصِ سبيلا هذا فضلاً عن واجبِ الوقوفِ عند ما شكَّ فيه أو لا يَعْلَمُهُ ، فَمِنْ بابِ أولى أن لا يُجيبَ بل عليه أن يَبْتَدِرَ [لا أدري] يقول ابنُ مسعود رضي الله تعالى عنه : [إنَّ الذي يُفْتِي الناسَ في كُلِّ ما يَسْتَفْتُونَهُ كَمَجْنُونٍ ، وقال أيضاً : جنةُ العالمِ لا أدري ، فإنَّ أخطأها فقد أُصِيبَتْ مقاتلُهُ] ومن اللغات الواعظة : ما وَرَدَ عن ابنِ حُصَيْنٍ في أهلِ زمانِهِ : [إنَّ أَحَدَهُمْ لَيُفْتِي في مَسْأَلَةٍ لو وردتْ على عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله تعالى عنه بجمَع لها أهلُ بدرٍ] .

**السابعة ؛** أن يكونَ أكثرَ اهتمامِهِ بِعِلْمِ الباطنِ الذي هو العِلْمُ باللهِ تعالى الدالُّ على الله تعالى الشاهدُ بالتوحيد له سبحانه مِنْ عِلْمِ الإيمانِ واليقينِ وعِلْمِ المعرفةِ والمعاملةِ المترجمةِ لِصِدْقِ مُراقبةِ القلبِ ومَعْرِفَةِ طريقِ الآخرةِ ، ذلك العلم الذي لا تَفِي به الكتبُ ، بل المجاهدةُ للنفسِ ، ومباشرةُ الأعمالِ الظاهرةِ والباطنةِ ، والجلوسُ مع الله تعالى في الخُلوةِ مع حُضورِ القلبِ بصافي الفِكرةِ والانقطاعِ إلى الله تعالى عما سواه ، فَكَمْ مِنْ مَعانٍ دَقِيقَةٍ مِنْ أسرارِ القرآنِ تُخَطِّرُ على قَلْبِ المتجرِّدين للذِّكْرِ والفِكرِ تُخْلُو عنها كتبُ التفاسيرِ ، وإذا انكشَفَ ذلك للمُريدِ المُراقِبِ لرَبِّهِ وعُرِضَ على المفسِّرين استَحْسَنُوهُ وعَلِمُوا أنَّ ذلك مِنْ تَنبيهاتِ القلوبِ الرِّكيَّةِ والوارداتِ الإلهيةِ . وذلك هو مِفْتَاحُ القُرْبِ الذي يُثْمِرُ حُبّاً إلهياً خالصاً .

فَكَمْ مِنْ مُتَعَلِّمٍ طالَ تَعَلُّمُهُ ولم يَقْدِرْ على مجاوزةِ مَسْمُوعِهِ بِكَلِمَةٍ ، وكم مِنْ مُقْتَصِرٍ على المُهمِّ في التعلُّمِ ، ومتوفِّراً على العملِ ومراقبةِ القلبِ فَتَحَّ اللهُ له مِنْ لطائفِ الحِكْمَةِ ما تحاَّرَ فيه عقولُ ذوي الألبابِ

وفي الأثر الذي أخرجه أبو نُعيم ؛ (مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْزَنَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) يقول الريانيون : وبارك له في عِلْمِهِ حتى يُدْخِلَهُ الجنة.

وقال سيدنا عليٌّ كرم الله وجهه : القلوب أوعيةٌ وخَيْرُهَا أوعاها لِلخَيْرِ.

**الثامنة ؛** أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين الذي هو العلم الذي لا يتداخلُ صاحبه ريبٌ وذلك بِعَلَّتِيهِ على العقلِ حتى قال الإمامُ الجُنَيْدُ في تعريفه : [هو استقرارُ العلمِ الذي لا يتحوَّلُ ولا يتغيَّرُ في القلب]. لذا كان رأسَ مالِ الدِّينِ وفي الحديث الذي رواه البيهقي والخطيب بإسناد حسن : (اليقينُ الإيمانُ كُلُّهُ) وقد عُرِفَ دليلُ صحَّتِهِ عند صاحبه برفعِ الهمة عن الخلق عند الحاجة , وتركِ المَدْحِ لهم في العَطِيَّةِ , والتَّنَزُّرِ عن دَمِّهِمْ عند المُنْعَةِ كما أشار سيدي ابنُ عجيبة.

فاليقينُ أصلٌ وأساسٌ في كلِّ بابٍ من أبوابِ التوحيدِ , وآيةٌ على ثمراتها البانعة لاسيما رؤيةُ الأشياءِ كُلِّهَا أتمَّها مِنْ مُسَبِّبِ الأسبابِ دونِ التفتاتِ إلى الوسائطِ مُنعاً أو عطاءً مع الثقة المطلقة بضمانِ الله تعالى الرِّزْقِ , ورؤية الحكمة الإلهية على العموم والشمول , مع المحافظة على صنوفِ الطاعاتِ قليلها وكثيرها , واجتنابِ المعاصي مُطلقاً قليلها وكثيرها , ثم التَّحَقُّقِ بأنَّ الله تعالى مطَّلَعٌ عليه , كلُّ ذلك مع دوامِ يقظته نَفْساً بعد نَفْسٍ.

**التاسعة ؛** أن يكون حزيناً مُنكسراً مُطْرِفاً صامِتاً ظاهراً أثَّرَ الخشية عليه المُذَكِّرُ باللهِ تعالى غيرَ مُتَهافتٍ في الكلامِ والتَّشَدُّقِ والاستغراقِ في الضحكِ والحِدَّةِ في الحركةِ والنُّطْقِ لكون ذلك مِنْ آثارِ البَطَرِ والأَمْنِ والغفلةِ عن عظيمِ عقابِ الله تعالى.

قال سيدنا علي كرم الله وجهه : إذا سمعتمُ العلمَ فأكْظِمُوا عليه , ولا تَحْلُطُوا بِهِزِلَ فَتَمُجَّهُ القلوبُ. ثم إنَّ التمامَ في التلقِّي والأداءِ على تَقَابُلِ هذه الضوابطِ ما نَبَّهَ إليه المرثون بقولهم : [إذا جَمَعَ المُعَلِّمُ ثلاثاً نَمَّتِ النُّعْمَةُ بها على المُتَعَلِّمِ : الصبرُ , والتواضعُ , وحُسنُ الخُلُقِ , وإذا جَمَعَ المُتَعَلِّمُ ثلاثاً نَمَّتِ النُّعْمَةُ بها على المُعَلِّمِ : العقلُ , والأدبُ , وحسنُ الفهمِ].

قال سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه : (تعلّموا العلم , وتعلّموا لِلْعِلْمِ السكينةَ والوقارَ والحِلْمَ وتواضعوا لِمن تتعلّمون منه , وليتواضع لَكُمْ مَنْ يَتَعَلَّمُ مِنْكُمْ , ولا تكونوا مِنْ جبابرة العلماء فلا يقومُ عِلْمُكُمْ بِجَهْلِكُمْ).

وفي الأثر : (مَنْ آتاهُ اللهُ عِلْماً وَرُهداً وتواضعاً وحُسنَ خُلُقٍ فهو إمامٌ المُتَّقِينَ)

والعلامةُ الفارقةُ في ذلك كُلِّهِ : نورٌ يُقَدِّفُ في القلبِ يُفَرِّزُ أَجلى علاماتِ علماء الآخرة كما قال صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه الحاكم والبيهقي عن ابن مسعود : تلا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : (فَمَنْ

يُرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحَ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ) فقيل له : ما هذا الشرح ؟ فقال: (إِنَّ النُّورَ إِذَا قُذِفَ فِي الْقَلْبِ  
انْشَرَحَ لَهُ الصَّدْرُ وَانْفَسَحَ)

قيل : فهل لذلك من علامة ؟

قال صلى الله عليه وسلم : (نعم ! التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ , وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ , وَالِاسْتِعْدَادُ  
لِلْمَوْتِ قَبْلَ نَزْوِلِهِ)

**العاشره ؛** أَنْ يَكُونَ أَكْثَرَ بَحْثِهِ عَنِ عِلْمِ الْأَعْمَالِ , وَعَمَّا يُفْسِدُهَا وَيُشَوِّشُ الْقُلُوبَ , وَيُهَيِّجُ الْوَسْوَاسَ  
 , وَيُثِيرُ الشَّرَّ , فَإِنَّ أَصْلَ الدِّينِ التَّوْقِي مِنَ الشَّرِّ , فَأَقْرَبُهَا وَأَعْلَاهَا الْمُواظَبَةُ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْقَلْبِ  
 وَاللِّسَانِ , وَالشَّأْنُ كُلُّ الشَّأْنِ مَعْرِفَةُ مَا يُفْسِدُهَا وَيُشَوِّشُهَا , قِيلَ لِلْحَسَنِ : إِنَّكَ تَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ لَا يُسْمَعُ مِنْ  
 غَيْرِكَ , فَمِنْ أَيْنَ أَخَذْتَهُ ؟ قَالَ : مِنْ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ . وَقِيلَ لِحُدَيْفَةَ : نَرَاكَ تَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ لَا يُسْمَعُ مِنْ  
 غَيْرِكَ فَمِنْ أَيْنَ أَخَذْتَهُ ؟ قَالَ : (خَصَّنِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ عَنِ الْخَيْرِ ,  
 وَكَنتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ أَقَعُ فِيهِ , وَعَلِمْتُ أَنَّ الْخَيْرَ لَا يَسْبِقُنِي عِلْمُهُ) , وَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ :  
(فَعَلِمْتُ أَنَّ مَنْ لَا يَعْرِفُ الشَّرَّ لَا يَعْرِفُ الْخَيْرَ).

**حادي عشر؛** أَنْ يَكُونَ اعْتِمَادُهُ فِي أَخْذِ الْعُلُومِ عَلَى بَصِيرَتِهِ بَضِيَاءَ قَلْبِهِ الْمُتَوَرِّ بِنُورِ الْقُدْسِ وَسَلَامَةِ  
 الْعَقِيدَةِ مُتَحَقِّقاً بِأَنَّ الْمُقَلَّدَ الْأَصْلَ إِنَّمَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْخُذُ عَنْهُ كُلُّ مَنْ تَوَفَّرَتْ فِيهِ أَهْلِيَّةُ  
 النَّظَرِ وَالِاجْتِهَادِ مُوَصِّلاً الْمَفْهُومَ السَّلِيمَ إِلَى كُلِّ مُتَبَدِّئٍ فِي الطَّلَبِ وَسَالِكِ سَبِيلِ الْأَرْبِ , لَا يَقَالُ مِثْلَهُ لِلْقَاصِرِ  
 كَمَا أَشَارَ الْإِمَامُ أَبُو طَالِبِ الْمَكِّي فِي كِتَابِهِ الْقُوتِ بِقَوْلِهِ : [وَهَذَا الْعَالِمُ الَّذِي هُوَ مِنْ أَهْلِ الْاسْتِنْبَاطِ  
 وَالِاسْتِدْلَالِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ , فَأَمَّا الْجَاهِلُ وَالْعَامِّيُّ الْغَافِلُ فَلَهُ أَنْ يَقَلِّدَ الْعُلَمَاءَ , وَلِ الْعَالِمِ الْعُمُومِ أَيْضاً أَنْ  
 يَقَلِّدَ عَالِمَ خُصُوصٍ , وَلِلْعَالِمِ بِالْعِلْمِ الظَّاهِرِ أَنْ يَقَلِّدَ مَنْ فَوْقَهُ مِمَّنْ حَمَلَ عَنْ عِلْمٍ بَاطِنٍ مِنَ الْقُلُوبِ].

قلت : والقصد من كلام الإمام الغزالي والله أعلم الإشارة إلى أن من أمارات الكمال عند علماء  
 الآخرة قُدرتهم على فهم الدليل المُتَلَقَّى مِنَ الْمُقَلَّدِ الْأَسَاسِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ , وَاسْتِنْبَاطِ  
 الْأَحْكَامِ بِعِلْمِهِمْ وَثُوقَةِ نَظَرِهِمْ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ وَظَاهِرٌ فِي كَلَامِ الرِّبَانِيِّينَ وَالْإِفْلَاحِ مِنْ تَقْلِيدِ مَنْ تَوَفَّرَتْ فِيهِ  
 شُرُوطُ الْاجْتِهَادِ بِكَمَالِهَا كَالْأئِمَّةِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ.

ولذلك كان يقال في زمن السَّلَفِ : فَلَانٌ مِنْ أَوْعِيَةِ الْعِلْمِ , وَلَا يُسَمَّى عَالِماً إِذَا كَانَ شَأْنُهُ الْحِفْظَ مِنْ  
 غَيْرِ إِطْلَاعٍ عَلَى الْحِكْمِ وَالْأَسْرَارِ , ذَلِكَ أَنَّ مَنْ كُشِفَ عَنْ قَلْبِهِ الْغِطَاءُ وَاسْتَنَارَ بِنُورِ الْهُدَايَةِ صَارَ فِي نَفْسِهِ  
 مَتَّبِعاً مُقَلِّداً لِأَنَّ الْفَقِيهَةَ فِي الْعُلَمَاءِ هُوَ الْفَقِيهَةُ بِفَقْهِ عِلْمِهِ وَقَلْبِهِ لَا بِحَدِيثِ سِوَاهُ , وَمَثَلُ الْعَالِمِ بِعِلْمٍ غَيْرِهِ مَثَلُ  
 الْوَاصِفِ لِأَحْوَالِ الصَّالِحِينَ الْعَارِفِ بِمَقَامَاتِ الصَّدِيقِينَ وَالْمُقَرَّبِينَ , وَلَا حَالَ وَلَا مَقَامَ , فَلَيْسَ يَعُودُ عَلَيْهِ مِنْ  
 وَصْفِهِ إِلَّا الْمَحَاجَّةُ بِالْأَعْمَالِ وَالْمَقَامِ.



**ثاني عشر ؛** أن يكون شديد التوقّي من مُحدثات الأمور المخالفة لما كان عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله تعالى عنهم ، وذلك بمعرفة أحوالهم وسيرتهم وأعمالهم المُرتبطة بشؤون الآخرة ومفاتيحها من الحزم ، والمجاهدة ، والتفكّر ، ومراقبة الظاهر والباطن ، واجتناب دقيق الإثم وجليله ، والحرص على ادراك خفايا شهوات النفوس ومكاييد الشيطان ، وذلك لبلوغ الورع في المكاسب والمعاملات ، وإدراك الفرق بين نفاق العلم والعمل ، والفرق بين خواطر الروح والنفس ، وبين خاطر الإيمان واليقين والعقل ، وتفاوت مشاهدات العارفين وعلم القَبْض والبَسْط وغيرها من علوم الآخرة تلك التي تُستفتَح بمضمون ماورد في الخبر ؛ (طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنّة ، ولم يُعدها إلى بدعة) /البنار من حديث أنس بسند ضعيف/.

هذا ؛ وقد أشار الإمام الزبيدي في إتحاف المتقين أن من جملة البدع الضالة الخوض في الباطل والغيبة والنميمة والاستماع إليهما ، والنظر إلى الزور واللّهو ومجالسة أهله والمشى في هوى النفس والتعصب ، وشدّة الحرص على الدنيا.

ثم حدّر من أخطر ما ظهر على الناس من البدع التي بها ترك الكثير من السنن كبده السلام عند اللقاء ، وتكرار السلام ثلاثاً للاستئذان قبل الدخول ، ومن ذلك ترك السؤال عما لا يعني ، ومن ذلك قول الرجل لصاحبه إذا لقيته ذاهباً في الطريق : إلى أين تريد ؟ ، أو من أين جئت ؟ ، فقد كره هذا ، وليس من السنّة والأدب وهو داخل في التجسس والتحقّس.

يقول ابن مسعود : أنتم اليوم في زمانٍ ؛ الهوى فيه تابع للعلم ، وسيأتي زمانٌ يكون العلم فيه تابعاً للهوى.

يقول أبو سليمان الداراني : [لا ينبغي لمن أهدى من الخير أن يعمل به حتى يسمع به في الأثر فيحمد الله تعالى إذا وافق ما في نفسه].

**ختاماً ؛** قال الإمام الغزالي عليه الرحمة والرضوان : فهذه اثنتا عشرة علامة من علامات علماء الآخرة تجتمع كل واحدة منها جملة من أخلاق علماء السلف ، فكن أحد رجلين إما مُتصفاً بهذه الصفات ، أو مُعترفاً بالتقصير مع الإقرار به ، وإياك أن تكون الثالث - أي لا مُتصفاً ولا مُعترفاً بل مُنكراً - فتلبس على نفسك بأن تُبدل آله الدنيا بالدين ، وتُشبهه سيرة البطالين بسيرة العلماء الراسخين ، وتلتحق بجهلك وإنكارك بزمره الهالكين الآيسين نعوذ بالله من خدع الشيطان فنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن لا تُغرّه الحياة الدنيا ولا يُغرّه بالله العرور. آمين يارب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

أما بعد ؛ (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد)

إعداد وتهذيب واختصار وتصرف مع زيادات لطيفة راجي عفو ربه

## الشيخ محمد الفحام

